

سياسة الاستعمار تجاه الطرق الصوفية بالجزائر في أواخر القرن 19

إعداد د/ عبد العزيز شهبوي

أستاذ محاضر بالمدرسة العليا للأساتذة بوزريعة

دور الطرق الصوفية في المقاومة الشعبية

عرّف " ابن خلدون " التصوف بقوله : « أصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه » ⁽¹⁾ وقد قام أئمة التصوف بتحديد طرائقهم على مقتضى الآداب الصوفية ، أو " الورد " ، الذي يمثل تعاليم الطريقة وعقيدتها ومذهبها ، وتختلف فيه كل طريقة عن الأخرى من حيث الممارسات والأذكار .

في الجزائر ، تعددت الطرق الصوفية الفاعلة ، خلال القرن 19 ، واشتهرت كل طريقة بشيخ أو خليفة يعترف به المقدمون والإخوان ، وبزوايا تمثل خلوة للعبادة الصوفية ، وتقوم بدور الرباط ، وتستعمل للتعليم والصلاة الجامعة وإيواء الغرباء ، وكانت كثيرة الاتباع والأوقاف والمال . ومن ثمة كانت كل طريقة لها سمعتها ووزنها ، بعضها هادن الاستعمار منذ البداية ، مثل التجانية التي أسسها أبو العباس أحمد التجاني ، المتوفى عام 1230 هـ / 1814 م في فاس ، وهو من بلدة عين ماضي (بنواحي الأغواط) حيث توجد الزاوية الأم ⁽²⁾ . والبعض الآخر دعا إلى الجهاد في سبيل الله دفاعا عن الإسلام والأرض والعرض ، ضد الاحتلال .

ولعل أكبر تجمع وطني إسلامي هو مبايعة الحاج عبد القادر بن محي الدين أميرا للمؤمنين في معسكر عام 1832 . وعلى إثر المبايعة أعطى الأمير تعليماته بوجوب الطاعة ، وتعهد بإجراء العدل على سنة الله ورسوله ، واحترام الشريعة ، والعمل على طرد العدو ، ثم أعلن الجهاد في سبيل الله والوطن ⁽³⁾ .

ومن أهم الثورات ⁽⁴⁾ المنسوبة للطرق الصوفية ⁽⁵⁾ وزواياها ما يلي :

1- مقاومة الأمير عبد القادر التي شملت معظم التراب الوطني (1832 - 1847)

- 2- انتفاضة الشيخ أحمد بوزيان في واحة الزعاطشة بالزيان عام 1849 .
وتمثل هذه المقاومات الطريقة القادرية ، المنسوبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفى في بغداد عام 561 هـ / 1166 م . وتعتبر القادرية القاعدة للطرق الصوفية التي جاءت بعدها وقد نشرها في الغرب " أبو مدين شعيب الأندلسي " المتوفى في تلمسان عام 594 هـ / 1197 م مقاومة الحاج موسى الدرقاوي (الأغواطي) في التيطري عام 1835 ، ثم في أولاد نايل
- 3- جهاد عبد الرحمن الطوطي ، مقدم الدرقاوية في نواحي بلعباس ، عام 1845 .
ظهرت الطريقة الدرقاوية في المغرب الأقصى ، وهي تنتسب إلى الشيخ محمد العربي الدرقاوي المتوفى بشمال فاس ، عام 1239 هـ / 1823 م ، وتعود أصولها إلى الشاذلية .
أما الطريقة الشاذلية التي تفرعت عنها عدة طرق صوفية ، فتعود أصولها إلى القادرية . وهي تنتسب إلى أبي الحسن علي الشاذلي ، الذي انتقل من المغرب الأقصى إلى تونس ، وتوفي بمصر عام 656 هـ / 1258 م .
- 4- ثورة الشريف محمد بن عبد الله بومعزة بجبال الونشريس وأولاد نايل (1845 - 1847)
- 5- ثورة سي الأزرق بلحاج الطيبي في فليطة عام 1864 .
تنتمي هذه الثورات إلى الطريقة الطيبية التي تستمد أصولها من الشاذلية . وقد تأسست الطيبية في وزان بالمغرب الأقصى ، على يد الشيخ عبد الله الشريف ، المتوفى عام 1089 هـ / 1678 م ، وازدهرت في عهد ابنه الطيب (1127 - 1181 هـ / 1716 - 1768 م)
- 6- مقاومة الحاج عمر ، ومولاي إبراهيم ، وفاطمة نسومر في جبال جرجرة (1850 - 1857) .
- 7- ثورة الشيخ الصادق بلحاج في الخنقة وبسكرة (1858 - 1860) .
- 8- ثورة الشيخ الحداد ، وابنيه : عزيز ومحمد ، في جرجرة والباور وقسنطينة ، عام 1871 .
- 9- ثورة الشيخ محمد يحيى الرحمان في واحة العمري بالزيان ، عام 1876 .

10- ثورة الشيخ محمد أمزيان بن عبد الرحمن في الأوراس عام 1879 قامت بهذه الثورات الطريقة الرحمانية ، التي تنتسب إلى الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري الزواوي ، المتوفى عام 1208 هـ / 1793 م ، وهو من قبيلة آيت إسماعيل ، تلقى تعاليم الطريقة الخلوتية الشاذلية في المشرق ، ثم نشرها في جرجرة والشرق الجزائري وجنوبه

11- انتفاضة الشريف محمد بن عبد الله في الصحراء الشرقية للجزائر (1852 - 1861) .

دعم هذه الانتفاضة الطريقة السنوسية ، التي تعود أصولها إلى القادرية ، وهي تنسب إلى الشيخ محمد بن علي السنوسي المستغامي ، المتوفى بليبيا عام 1276 هـ / 1859 م . وكان وراء هذا الدعم الشيخ السنوسي ، ومقدمه في الغرب الجزائري : الحاج أحمد التواتي .

12- ثورة أولاد سيدي الشيخ بالغرب الوهراني (1864 - 1881) .

13- ثورة الشيخ بوعمامة بالجنوب الوهراني (1881 - 1883) .

ترغم هذه الثورات أصحاب الطريقة الشيعية ، المنسوبة إلى سيدي الشيخ عبد القادر بوسماحة ، المتوفى عام 1023 هـ / 1615 م في الأبيض سيدي الشيخ ، وكان مقدما للشاذلية

اهتمام الاستعمار بالطرق الصوفية

أرجع بعض المحتلين المقاومة الشديدة التي وجدها الجيش الفرنسي إلى انتماء الناس إلى الطرق الصوفية ، حيث كانت تحمس للجهاد وتدعو للثورة . وحتى يتم القضاء على هذه الطرق الصوفية ، عمل الفرنسيون على معرفتها ، وإدراك أهميتها ودورها وأسرارها وألغازها . ومن أجل ذلك قام الضباط الفرنسيون بدراسة كل طريقة صوفية ، وتحسسوا على شيخها ومقدميه ، وأحصوا الأتباع والزوايا والأموال ، وجمعوا التقارير الخاصة ، ونشروا المقالات ، وألفوا الكتب .

ومن ذلك وأهمها ما يلي : (6)

1- كتاب : « الطرق الصوفية عند مسلمي الجزائر » صدر عام 1845 ، ألفه

الضابط "دي نوفو De Neveu " والذي كشف فيه أهمية الطرق الصوفية في الثورات . وكان " دي نوفو " يعرف العربية ، ومتزوجا من جزائرية مسلمة وخبيرا بالمجتمع الجزائري ، إذ كان من كبار المسؤولين في الشؤون الأهلية ، منها وظيفة المكتب العربي . وقد استقى معلوماته من وظائفه المختلفة ، ومن زوجته والجزائريين الذين تعامل معهم

2/كتاب : « الإخوان » ، صدر عام 1859 ، ألفه : " شارل بروسلار Ch. Brosselar " ، عن المؤسسات الدينية في تلمسان . وكان " بروسلار " متوليا المكتب العربي في تلمسان ، فاتصل بأهلها ، وعرف حياتهم الاجتماعية ، والتراث الإسلامي الذي كانت تتمتع به هذه المدينة . كما كان يجيد العربية ، فاستعملها للإطلاع على المخطوطات في الزوايا والمساجد والمكتبات الخاصة عند العائلات .

3/كتاب : « الطرق الإسلامية في الحجاز » ، صدر عام 1887 ، ألفه : " ألفريد لوشاتلييه Alfred le Chatelier " ، وهو ضابط مختص في الشؤون الإسلامية ، كان مديرا للمكتب العربي في مدينة ورقلة ، وعن طريق هذا المكتب عرف نشاط الطرق الصوفية في الجنوب ، وهو أيضا مؤسس « مجلة العالم الإسلامي » ، وكان رئيسها ، وقد ربط بين بعض الطرق الصوفية في الحجاز والجزائر .

4/كتاب : « اكتشاف الصحراء : طوارق الشمال » ، صدر عام 1864 ، ألفه : " هنري دوفيرييه H.Deveyrier " ، حين رحل إلى الجنوب حتى وصل غدامس تحت حماية شيوخ التجانية . فكتب عن الطوارق ، واكتشاف الصحراء ، وكشف بالخصوص عن أهمية بعض الطرق الصوفية في الجنوب كالتجانية والسنوسية والطيبية والشيخية والقادرية (7) .

كتاب : « مرابطون وإخوان » ، صدر عام 1884 ، وضعه " لويس رين L.Rinn " الذي يعتبر من الخبراء البارزين في الإدارة الأهلية الفرنسية ، وكان مهتما بالحياة الجزائرية الدينية والاجتماعية والسياسية ، فعرف مختلف فئات المجتمع الجزائري بكل تفاصيله . وفي تأليف " رين " لكتابه هذا ، استعمل نفوذه كضابط مسؤول في الإدارة العامة ، فطلب التقارير من مختلف

الشيوخ ومقدمات الطرق الصوفية عن أصولهم وعلاقاتهم وحالاتهم ، ونشاطهم ، وعدد أتباعهم ، وصنفهم وصفتهم وجنسهم ، كما لجأ إلى التقارير الرسمية التي تصل إلى الإدارة المركزية من المكاتب العربية وغيرها ، وأضاف إلى ذلك مراسلات القناصل الفرنسيين في بعض البلدان الإسلامية .

فجاءت دراسة " رين " شاملة لمختلف الطرق الصوفية في الجزائر ، ومن جميع نواحيها وقد تكفل بها الحاكم العام في الجزائر " لويس تيرمان Louis Tirman " (1882 - 1891) . وحاليا يوجد كتاب « مرابطون وإخوان » (Marabouts et Khouan) تحت رقم : 52807 بالرصيد المغربي ، في المكتبة الوطنية بالحمامة ⁽⁸⁾ .

5/ كتاب : « الطرق الدينية الإسلامية » ، صدر في الجزائر عام 1897 ، وضعه الكاتبان : " أوكتاف ديون O. Depont ، وايزافييه كوبولاني Y. Colanppoi " كان المؤلفان مسؤولين اداريين ، فهما خبيران بالشؤون الأهلية الجزائرية ، وجاءت دراستهما في وقت كانت فيه فرنسا تحاول ربط مستعمراتها في القارة الإفريقية ببعضها . لذلك كانت دراسة الطرق الصوفية العاملة هنا وهناك مسألة حيوية .

وقد جندت حكومة " جول كامبون Jules Cambon " إمكانياتها في البحث والتمويل ، واستعملت لخدمة هذا المشروع التقارير الإدارية ، وتقارير القناصل الفرنسيين في البلاد الإسلامية ومراسلات شيوخ الزوايا . كما قامت الحكومة العامة بطبع هذه الدراسة العامة عن الطرق الصوفية على نفقتها ، والتي تضمنت أيضا آراء وتوصيات كانت توجه السياسة الفرنسية نحو المسلمين .

وكتاب « الطرق الدينية الإسلامية Les confréries religieuses musulmans » ، متوفر حاليا تحت رقم : 51192 بالرصيد المغربي في المكتبة الوطنية بالحمامة ⁽⁹⁾ .

سياسة القضاء على دور الطرق الصوفية

تصدى الفرنسيون للطرق الصوفية بقوة الجيش والسلاح ، ثم اتخذوا وسائل أخرى تمثلت في تشييت الصفوف وتمزيق الوحدة داخل الطريقة الصوفية الواحدة ، وجلب ضعاف النفوس ، وشراء الذمم ، بهدف القضاء على الثورات والتحكم في سير المجتمع الجزائري .

لقد رأى الفرنسيون أن استقلال زعماء الطرق الصوفية عن الإدارة ، وعدم قبولهم الوظيفة ، يجعلهم خطرين على الاستعمار ، لذلك تقرر مراقبتهم عن كثب ، بالتحكم في مداخيلهم المادية ، ومنع اعطائهم الرخص لزيارة أتباعهم وجمع أموال الزيارات (10) .

لكن المؤلف " رين Rin " لاحظ أن الطرق الصوفية التي تحالفت مع فرنسا فقدت حيويتها وانخفض عدد أتباعها . بينما الطرق التي ظلت على عدائها أو حيادها اكتسبت أتباعا وتجددت ، لذلك نصح بعدم اتخاذ أسلوب المواجهة والانتقام ضد الطرق العدو ، كهدم الزوايا واعتقال الزعماء ونفيهم ، لأن ذلك يخدمها ، ويضر بالمصلحة الفرنسية ، وقال إن أكثر الطرق عداء في وقته هي الرحمانية والدرقاوية ، وأن أكثرها ولاء هي التجانية .

واقترح " رين " أن تتبع بلاده سياسة الحكمة ومنح الأموال لدى هذه الطرق لتتصادق معها ، وتستفيد منها ، وتقلّم أظافرها ، ويتجسد ذلك في اعتراف فرنسا بشرعية الرؤساء الذين يمكنهم الانضواء تحت حمايتها ، ومنحتهم مقادير مالية وشرعية ، وبذلك يكون منشغلين بمصالحهم خارج النشاط السياسي ، وينتهي خطرهم وتأثيرهم على الأهالي .

ورأى " رين " ضرورة تقوية التجانية لتكون حاجزا ضد تسرب الطرق المعادية للفرنسيين في الجنوب على الخصوص ، وتعيين الأئمة من أتباع الطريقة التجانية ، وجعلهم عينا على مقدمي الطرق الأخرى ، وسيلة إغراء لهؤلاء المقدمين بقبول نفس الوظيفة المربح ، إلى أن يصبحوا غيورين على وظيفهم ومكانتهم الاجتماعية . ومن ثمة يتخلى الجميع عن مشايعة الثورات ، وتصبح المصالح هي التي تتحكم في العلاقات (11) .

وأضاف الكاتبان " ديون وكوبولاني Depont et Coppolani " الوصايا التالية

أ- وضع الطرق الصوفية تحت الوصاية الفرنسية ، وجعل شيوخها ومقدميها أئمة ليس لهم رواتب ولا تابعين للسلطة في الظاهر .

ب- وضع اليد على الزوايا القديمة الموجودة ، وإظهار التسامح معها ، وإنشاء زوايا حديثة مجاورة للزوايا القديمة ومنافسة لها ، تكون تحت سلطة فرنسا ، وجعلها تقوم بالعبادات والتعليم والإحسان ، ومن خلالها يمكن مراقبة الزوايا القديمة المجاورة .

ج- عن طريق الطرق الصوفية التي لها علاقات خارجية ، يمكن لفرنسا أن تربط علاقات تجارية وسياسية مع السودان الشرقي والغربي لنشر أفكارها الحضارية .
أما سياسة الحاكم العام في الجزائر " جول كامبون Jules Cambon " نحو الطرق الصوفية منذ توليه عام 1892 ، فقامت على الاحتفاظ بحزمة الشيوخ الذين بقوا بعيدين عن الفرنسيين ، وتمثلت معاملها فيما يلي :

أ- إعطاء الشيوخ بنوسا أحمر ، منحهم الكلمة العليا في البلدة ، مع إظهار التسامح نحوهم ، ودعوتهم لتولي الوظيفة تحت السلطة الفرنسية .
ب- احترام إرادة الشيخ والإخوان في اختيار المقدمين ، وتعيين الخلفاء عن طريق وراثة البركة .

ج- الموافقة على الإجازات الصادرة من الشيوخ للمقدمين ، والاعتراف بها ، لجعل هؤلاء المقدمين مستقلين في زواياهم ، وواقعين تحت يد فرنسا (12) .

وتمشيا مع السياسة الفرنسية تجاه الطرق الصوفية ، فقد تزوج شيخ زاوية عين ماضي " أحمد التجاني " من الفرنسية " أوريلي بيكار " ، ابنة الضابط المتقاعد ، وبنى لها قصر كوردان للحياة الفرنسية ، بقرب عين ماضي ، وبقيت على مسيحيتها من تاريخ الزواج عام 1871 إلى وفاتها عام 1933 ، وكانت عين الفرنسيين على الطريقة التجانية .

وبعد وفاة الشيخ " أحمد التجاني " عام 1897 ، اضطر خليفته الشيخ " البشير التجاني " إلى الزواج من " أوريلي Oreilly " أرملة أخيه ، وذلك حتى لا تفقد فرنسا عينها على الطريقة التجانية وتزوج من " فيري Feret " الفرنسية ، " حمزة بن بوبكر " ، آغا جبل عمور ، وهو أحد أقطاب أولاد سيدي الشيخ (13) . وأيضاً تزوج ابن الشيخ البودالي الهري من امرأة فرنسية (14) . وكذلك تزوج الشيخ " محمد الشرقي " ، صاحب زاوية العطف الشاذلية ، من امرأة فرنسية (15) .

النتائج : استطاع الفرنسيون أن يقضوا على المحاربين من زعماء الطرق الصوفية ورجالها ، فمنهم من نُفي إلى خارج البلاد كالأمير عبد القادر عام 1847 ، ومنهم من قُتل في ميدان المعركة مثل أحمد بوزيان بالزعاطشة عام 1849 ، ومنهم من سجن أثناء المقاومة مثل الشريف محمد بومعزة بالونشريس عام 1847 ، والشريف محمد بن عبد الله بورقلة عام

1861 ، والشيخ الحداد بقسنطينة عام 1871 ، وهكذا فرق الاستعمار شملهم ، واسكت بعضهم بالوظائف ، وزرع بينهم العداوة والبغضاء .

وفي أواخر القرن التاسع عشر (19م) ، ضعفت المقاومة ، وفقد الأمل في الخلاص من المستعمر الأجنبي ، ومن ثمة زاد ارمءاء المواطن الجزائري في أحضان التصوف وشيوخه ، معتقدا فيهم الخلاص الدنيوي والروحي ، لكن الطرق الصوفية استسلمت للأمر الواقع ، ولم تعد مضادة للاستعمار ، حيث لجأ الفرنسيون أيضا إلى تمزيق وحدتها وتشتيت صفوفها (16) .

فلم يأت آخر القرن حتى تفرعت القادرية والشاذلية والدرقاوية ، وغيرها إلى فروع ضعيفة ومتنافسة ، وكان مصير الرحمانية كذلك ، حيث تمزقت إلى فروع كثيرة ، واستقل كل مقدم بزوايته ، لا يعترف أحدهم بالآخر ، وأبرزهم :

- 1- الشيخ محمد بن أبي القاسم البوجليلي في آقبو (نواحي بجاية) .
- 2- الشيخ محمد باش تارزي في قسنطينة .
- 3- الشيخ علي بن الحملاوي في وادي العثمانية (نواحي قسنطينة)
- 4- الشيخ علي بن عمر في طولقة (نواحي بسكرة) .
- 5- الشيخ محمد بن أبي القاسم في الهامل (نواحي بوسعادة) .
- 6- الشيخ سالم بن محمد الأعرج في وادي سوف (17) .

ولقد اتبع الحاكم العام " جول كامبون " سياسة التقرب من الطرق الصوفية واستمالة رؤسائها ، فعرض عليهم الوظائف والأوسمة ، وأقام لمن مات منهم احتفالات التأبين ، مثل ما فعل عام 1897 ، بالجامع الجديد في مدينة الجزائر ، لـ " أحمد التحاني " ، شيخ زاوية عين ماضي ، وفي بوسعادة لـ " محمد بن أبي القاسم " شيخ زاوية الهامل ، وقد قبل بعضهم وظيفة الآغا والقائد ، سيما أولاد سيدي الشيخ ، ومنهم من حصل على أوسمة رسمية ، كالأغا الحاج قدور الصحراوي بتيارت ، وتحولوا بذلك إلى جهاز استغلالي في يد السلطة الفرنسية .

وكان هدف " كامبون " هو توظيف نفوذ الطرق الصوفية في خدمة المصالح الفرنسية في الصحراء .

كما سار الحاكم العامان " شارل جونار Ch . Jonnart "

(1903 - 1912) و " شارل ليطو Ch.Lutaud " (1912 - 1918) على

سياسة مشاهة نحر الطرق الصوفية . واستخدمت الإدارة نفوذ هذه الطرق خلال الحرب العالمية الأولى ضد الدعوة إلى الجهاد ، فأعلن رجال الدين خضوعهم لفرنسا، وتحالفوا معها ، وساهموا في التهدئة العامة ، ودعوا الجزائريين إلى الوقوف بجانب فرنسا ضد ألمانيا وحليفاتها تركيا⁽¹⁸⁾ واستمرت السلطة الفرنسية في توظيف الطرق الصوفية لمعارضة التيارات السياسية والإصلاحية التي ولدت في الجزائر منذ 1920.

- 1- عبد الرحمن بن خلدون : كتاب العبر ، ج 1 ، ط 2 ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت 1979 ، ص 863 .
- 2- أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 1 ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981 ، ص 518 .
- 3- محمد بن عبد القادر الجزائري : تحفة الزائر في تاريخ الأمير عبد القادر ، ج 1 ، بيروت 1964 ، ص 96 .
- شارل هنري تشرشل : حياة الأمير عبد القادر ، (ترجمة أبو القاسم سعد الله) ، ط 2 ، الجزائر 1982 ، ص 69 .
- 4- يحي بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين ، ج 1 ، ط 2 ، المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر 1996 ، ص 347-348 .
- 5- سعد الله : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 514 / 522 - 523 .
- سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي ، ج 4 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1998 ، ص 42 - 64 / 67 - 103 / 104 - 112 / 113 - 245 / 252 .
- عمار هلال : الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، الجزائر 1988 ، ص 110 - 105 / 109 . ، ص
- 6- سعد الله : المرجع السابق ، ج 4 ص 29 - 30 - 301 - 302 - 303 .
- 7- Exploration du Sahara : les Touareg du Duveyrier (Henri) Nord , Paris , 1864 .
- 8- Rinn (Louis) : Marabouts et Khouan , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1884 .
- 9- Depont (O) et Coppolani (Y) : Les confréries religieuses musulmans , (Adolphe Jourdan) , Alger , 1897 .
- 10- سعد الله : المرجع السابق ، ج 4 ، ص 31-306-307-310 .
- 11- Rinn : op . cit , pp 19- 108- 114- 516 .
- 12- Depont et Coppolani : op . cit , pp int . 283 .
- 13- Garrot (H) : « le mouvement islamique » , Bulletin de la société de géographie d'Alger et de l'Afrique du Nort , 1906 , p.174 .

- 14- محمد الهاشمي بن بكار : كتاب مجموع النسب ، الجزائر ج4 ، ص ص 314-315-316 .
- 15- سعد الله ، نفسه ، ص 1961 ، ص 162 .
- 16- سعد الله ، المرجع السابق ، ص 36-31-32 .
- 17- Depont et Coppolani : op . cit , p 247 .
- 18- سعد الله : المرجع السابق ، ج4 ، ص 310-324-328 .